«إن اكتشاف قدرات أبنائنا هي اللَّبِنة الأولى لرعايتها ولتكوين شخصيات سَوِيَّة»

من اللعب الدرامي إلى المسرح

د. رانيا وجيه حلمي

أستاذ مساعد - كلية التربية للطفولة المبكرة - جامعة القاهرة – مصر

اللعب الدرامي مرحلة يمر بها كل الأطفال

وصل «مازن» السادسة من عمره ولكنه لم يتوقف عن التحدُّث مع الدُّمَى واللُّعب بأدوات المطبخ.

فها هي الزجاجة يتخيلها صاروخًا، وأغطية الأوعية عجلةً يقود بها السيارة، حتى تلك الأكواب الزجاجية كانت تلسكوب خاصًا بالفضاء.

كانت والدته تراقبه تخشى أن يكون ابنها لم ينتهِ بعدُ من مرحلة اللعب الدرامي، هي تعرف أن الأطفال حتى سِنِّ الثالثة أو الرابعة يلعبون بشكلٍ درامي، يُضفُون الحياة على تلك الأشياء غير الحية. قد سبقته أخته ولعبت بالدمى على أنها أبناؤها، ظلت تضع لهم الطعام وتغير الحفَّاض، وتُحادثهم كأنهم حقيقيون.

فاللعب الدرامي هو مرحلة يمرُّ بها كل الأطفال. جميعهم يُحْيُون الأشياء ويتخيَّلون لها استخدامًا مختلفًا، فيبتكرون من العصا حصانًا، ويجعلون المُكعَّبات البلاستيكية قطارًا، ويلعبون مختلف الأدوار والمهَن.

سرعان ما تحول «مازن» من هذه الألعاب إلى التقليد والتمثيل، كان يقلد الفلاح والمهندس وغيرهم. تنبهت أُمُّه فكانت تشتري له العديد من ملابس المهَن. وشجعته على قصِّ الأقمشة وعمل الملابس بنفسه، واستخدام أدوات من البيئة المحيطة به. وفَّرت له ألوان الوجه لكي يُبدع في تهيئة ذاته لمختلف الشخصيات. كانت تحتفظ بالمُستهلَكات كافةً من أغطية الزجاجات والعلب البلاستيكية، والأزرار، والأحجار، وغيرها. كانت تلك الأشياء هي الكنوز الخاصة بصغيرها. كان مازن يكتشف ذاته بينما يكتشف مختلف الشخصيات.

درَّبته على أداء الحركات بجسده، كيف ينسِّق بين أجزاء جسده فيقلد حركة الفيل، أو يصبح كأسدٍ زائر، أو يتأرجح كبطَّة في بقعة مياه. علمته كيف يتمكن من التعبير بوجهه وجسده عن مختلف الانفعالات: الخوف والدهشة والفرح وغيرها. كانت تساعده لكي يحول أصابعه الصغيرة أمام ضوء الشمعة في الظلام فتصبح وجهًا لزرافة أو لأحد الطيور.

الدراما الإبداعية تتيح للطفل اكتشاف ذاته والتعبير عن انفعالاته والتحكم فيها

وبذلك فقد حوَّلت لعبَه الدرامي تدريجيًا إلى الدراما الإبداعية التي يحاول فيها الطفل توظيف مختلف أجزاء جسده، جنبًا إلى جنب مع الأدوات المتنوعة من حوله لابتكار الملابس والديكور وملامح الشخصيات المختلفة، فالدراما الإبداعية لها العديد من المزايا، أهمُّها اكتشاف الطفل لذاته، والتعبير عن انفعالاته سواء بالألفاظ أو بالحركات. من خلالها يكتسب الطفل الثقة في نفسه والآخرين، ويستطيع ضبط ذاته، والتحكُّم في انفعالاته.

وصل «مازن» إلى العقد الثالث من عمره، ظل طوال التسعة عشر عامًا الماضية متأثرًا بتشجيع أمه، وتحفيزها له على أداء الأدوار الدرامية، وقراءة الكتب والقصص عن الدراما والمسرح.

سرعان ما كوَّن فريق المسرح في الجامعة، كان رائدًا لأسرة التمثيل، وعمل فريقه على تشكيل المسرح التلقائي، حيث يدربون فيه الأطفال الصغار على الدراما الارتجالية.

هو المسرح الذي وضع بذوره «جاكوب ليفي مورينو Jacob Levy Moreno» رائد الدراما النفسية (السيكودراما Psychodrama)، والذي يقوم على دراما من نوع خاص حيث يعبِّر الأطفال بشكلٍ عفوي، ومن خلال الحركات والحوار الارتجالي عمَّا يدور في أنفسهم، عن أفكارهم، وأحلامهم، ومشاعرهم تجاه موضوع متفق عليه.

ومثلما حاز مسرح مورينو التلقائي على شعبية عالية حاز أيضًا مسرح فريق «مازن» على شعبية كبيرة، فإلى جانب الارتجال تميز مسرح «مازن» بالاهتمام بذوي الهِمَم، ومَن يعانون اضطراباتٍ سلوكية، وإشراكهم كأعضاء في الفرَق المسرحية.

المسرح يساعد في العلاج وتعديل السلوك لذوي الإعاقة والذين يعانون اضطرابات سلوكية

فها هو أحد الأطفال ذو السنوات السبع يعاني اضطرابَ فرط الحركة وتشتُّت الانتباه ADHD، والذي وجد في المسرح وسيلة لخفض شدة الاضطرابات التي يعاني منها فزاد معدل ومرونة انتباهه، وتحكُّمه في حركاته. وها هو أحد الأطفال الذين يعانون صعوباتِ التعلُّم LD وقد ساعده المسرح على اكتساب الثقة في النفس والمبادرة والتنظيم، ووجد فيه مجالًا للنجاح والفخر. وطفل ثالث من زارعِي قوقعة الأُذُن ساعده الاشتراك في المسرح على استخدام الألفاظ وتكوين الجُمل والتعبير عن الذات وزاد من تقديره لذاته، وآخر يعاني اضطرابًا سلوكيًا هو العدوان وقد ساعده المسرح على تعديل سلوكه وتفريغ الشحنات الانفعالية أولًا بأول.

نعم عزيزي القارئ كما استنتجت، الدراما والمسرح بمثابة أدوات سحرية تساعد على نمو الشخصية من مختلف الجوانب: الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية. حيث يؤدي الطفل/ الشاب الحركات المتنوعة معتمدًا على حركات جسمه فيدرب بذلك عضلات الجسم الكبيرة والصغيرة. ويرتجل ويبتكر ويلاحظ فتنمو قدراته المعرفية من انتباه وإدراك وتذكُّر وتخيُّل وتفكير وغيرها. ويبني العلاقات الاجتماعية والروابط ويتعود الحفاظ عليها ويتعلم احترام الذات والآخر. ويتعود السيطرة على انفعالاته والتحكُّم في ذاته وينمو استقراره الانفعالي.

وبينما يحصر الكثير من الآباء قدرات أبنائهم في الجانب الأكاديمي وينتظرون تفوُّقهم الدراسي يغفلون معه العديد من قدرات الطفل.

فها هي قصور الثقافة والمكتبات والمدارس تمتلئ بالفرَق المسرحية التي يعدُّها الكثيرون مضيعةً للوقت في حين أنها مفاتيح لنمو الشخصية، وتخفيف حدَّة الصعوبات لمن يعانون الاضطراباتِ المتنوعة، وتطوير وتنمية القدرات، وهي أيضًا وسائل لنمو التفكير الإبداعي.